

الشيخ محمد بن سليمان الصائم التلمساني (ق11هـ/17م)

تصوفه ومواقفه من قضايا عصره

قراءة في مخطوطه "كعبة الطائفين"

Sheikh Muhammad Ibn Sulaiman, Asaim Tlemceni (11H / 17 AD)

His Sufism and his positions about problems of his time

Reading in his manuscript "Kaabat Taifine"

د. قويدر قيداري

كلية الآداب واللغات، جامعة معسكر، الجزائر

kkaidari@yahoo.fr

#### ملخص

سنسعى من خلال هذه الدراسة للتعريف بشخصية صوفية كان لها تأثير رحيب في محيطها الصوفي والاجتماعي، واحتكاك مكثف مع محيطها الثقافي؛ خاصة مع علماء وأولياء تلمسان في بحر القرن 11هـ/17م، هو الشيخ محمد بن سليمان الصائم التلمساني صاحب مخطوط "كعبة الطائفين"، وستترجم له انطلاقا من مخطوطه الذي يعد بحق مدونة تلمسانية جزائرية كبرى في التراث الصوفي والمناقي.

وسنتصدى من خلال هذه الدراسة لتجلية شخصية محمد بن سليمان التي كانت غفلا من أي ترجمة تذكر في كتب التراجم الجزائرية الكثيرة التي عدنا إليها؛ على الرغم من أهميتها محليا ووطنيا، وسنسعى أيضا لتوضيح ملامح هذه الشخصية من حيث تصوفها وثقافتها وحراكها الاجتماعي والسياسي في حاضرة تلمسان، وبعض مواقفها من أحداث العصر الذي عاشت فيه وتفاعلت معه.

الكلمات المفتاحية: محمد بن سليمان (ق11هـ/17م) - تصوف - مواقف - مخطوط "كعبة الطائفين"

#### Abstract :

We will seek through this study to present a Sufi that had a great effect in its mystical and social environment as well as its intense contact with its cultural environment, especially with the scholars and saints of Tlemcen in the twelfth century, AH / XVII AJ . Sheikh Muḥamed Ibn Sā'im al-Tilimsānī, author of Kabatu al-tifn. We will describe portrait of this author from his manuscript, which is a Tlemcenian and Algerian corpus essential Sufi heritage.

We will attempt in this work to draw the portrait of Muhammad Ibn Sim al-Tilimsn who despite his obvious influence was ignored in the biographies we consulted. We will also seek to clarify the moral characteristics of this character, his mysticism, his culture and his social and political positions in the city of Tlemcen, as well as some of his Opinions of the events of his time.

**Keywords:** Muḥamed Ibn Sā'im al-Tilimsānī (11C / 17m) - Sufism - Ka'batu al-tā'ifin

## 1 - التعريف بمخطوط "كعبة الطائفين":

يمثل مخطوط "كعبة الطائفين" وبهجة العاكفين على قصيدة حزب العارفين " اهتمام أهل تلمسان بكتابة تاريخهم ومآثر أعلامهم وتدوين ثقافتهم الصوفية وأدبهم الشعبي في فترة من فترات تاريخ الجزائر العثمانية، وتحديدًا في القرن (11هـ/17م).

«كعبة الطائفين» كتاب تصوف بالدرجة الأولى، وكتاب تراجم بالدرجة الثانية، وهو مصدر من المصادر المهمة في تاريخ الجزائر بعامة والمجتمع التلمساني بخاصة، تردد ذكره في كتابي: «تاريخ الجزائر الثقافي» (ج1)، و«آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر» لأبي القاسم سعد الله كمصدر أساسي عديد المرات، وجاء «كعبة الطائفين» ليغطي فترة دقيقة من تاريخنا، تعد في نفس الوقت فقيرة من حيث المصادر التاريخية والترجمية.

في باب التراجيح والمناقب أرنّ المخطوط لعدد لا يستهان به من علماء تلمسان وصلحائها، ومناطق أخرى من الجزائر و المغرب في ق 17م، أدركهم المؤلف نفسه، أو تتلمذ عليهم، أو أدرك بعض من صاحبهم، أو أدرك ذويهم، أو جالسهم المؤلف ولازمهم في الحضر، أو شايعهم الطريق في السفر، حيث وصف أحوالهم ومقامهم في العلم والصلاح.

فإذا كان ابن مريم صاحب "البستان" قد غطى في ترجمته لأعلام تلمسان فترة طويلة امتدت إلى عهد قريب من المؤلف نفسه (ق 16م)، فإن "كعبة الطائفين" يكمل بدوره المسيرة والمسار ليغطي عصره أيضا، أي (ق 11هـ/17م).

قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أجزاء (أسفار)

وعليه جاءت أجزاء الكتاب على هذا النحو:

1-الجزء الأول: في ذكر أهل الصلاح،

2-الجزء الثاني: في ذكر أهل الطلاح،

3-الجزء الثالث: في ذكر أهل الصلاح المتحققين، "حزب العارفين".<sup>1</sup>

## 2 - مولد الشيخ محمد بن سليمان الصائم التلمساني ووفاته:

لم نعر على ترجمة محمد بن سليمان الصائم التلمساني ،صاحب كتاب "كعبة الطائفين"، في كتب التراجم الكثيرة التي عُدنا إليها<sup>2</sup>، ونقّينا فيها، غير أنه ورد اسمه مقرونا بكتابه السالف دون ترجمة في كتاب "إيضاح المكنون"<sup>3</sup>

لا نكاد نعرف أحدا ترجم لمحمد بن سليمان أو حاول أن يترجم له، إذا استثنينا العمل الذي قدّمه د. أبو القاسم سعد الله حول مخطوط "كعبة الطائفين" ومؤلفه.<sup>4</sup>

وعليه سوف نترجم له اعتمادا على ما أورده المؤلف محمد بن سليمان نفسه من معلومات متناثرة في صفحات كتابه بأجزائه الثلاثة، فقد ذكر اسمه ونسبه ولقبه وتاريخ ولادته ومساره العلمي وشيوخه وتصوفه ومواقفه من قضايا عصره السياسية والثقافية والاجتماعية..

ويبدو أن والد المؤلف كان يرغب في الولد، فالتمس وهو في الصحراء من الولي سيدي عبد القادر بن محمد المدعو (سيدي الشيخ)<sup>5</sup> الدعاء وتحقيق المراد، فكان له ما أراد، وفي هذا يقول المؤلف على لسان والده: «زرت الشيخ السماحي سيدي عبد القادر بن محمد أنا وسيدي أحمد بن عبد الغفار وهو في الصحراء، فسألته عمارة الدار، فقال لي: يعطيك الله ولدين يقرآن القرآن العظيم، فكان كذلك والحمد لله».<sup>6</sup>

يفيدنا المؤلف محمد بن سليمان في آخر الجزء الثالث من كتابه "كعبة الطائفين" أنه من مواليد سنة 1014هـ/1605م، حيث يقول متحدثا عن نفسه: «...ثم حين ولدت عنده أتى بي - أي والده - إلى شيخه سيدي عاشور... وأحسبه قال : مسح بيده على رأسك وبصق في فيك، وفي تلك السنة توفي الشيخ المذكور، وهي سنة أربعة عشر وألف».<sup>7</sup>

لا ندري متى توفي المؤلف على وجه التحقيق، ولكن من خلال ما ورد في كتابه «كعبة الطائفين» من إشارات وتواريخ، نستنتج أن المؤلف محمد بن سليمان كان حيا إلى سنة 1066هـ/1656م فهذه السنة هي آخر تاريخ يذكره المؤلف في كتابه.<sup>8</sup>

وربما يكون المؤلف قد عاش إلى أواخر القرن 11هـ/17م ، فهو يذكر ذلك صراحة في النص الآتي :«...بل لن تجد في هذا الشطر الأخير من القرن الحادي عشر إلا العقارب واللفاع»<sup>9</sup> ، ربما يقصد المؤلف بالشطر الأخير، الربع الأخير، أو النصف الأخير من القرن 11هـ/17م، أي ما بعد عام 1050هـ/1640م.

### 3 لقبه:

عُرف المؤلف بـ "الجزولي" تيمنا وتبركا بالشيخ الصوفي المعروف صاحب كتاب «دلائل الخيرات» أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي، يقول المؤلف متحدثا على لسان والده: «...ثم يوم سابعك - عقيقة المؤلف - قال لي الشيخ الصالح سيدي محمد اليتون، ولَّد الشيخ البركة سيدي محمد بن رحمة: سَمَّه محمد بن سليمان الجزولي، موافقة لاسم صاحب "دلائل الخيرات"». <sup>10</sup>

يقول المؤلف محمد المهدي الفاسي متحدثا عن هذه الشخصية الصوفية التي نسب إليها مؤلفنا: كان من العلماء العاملين، والأئمة المهتدين، ومن جمع بين شرف الطين والدين، انتفع به خلق كثيرون وتخرج على يده مشايخ مشهورون، جدَّد الطريقة بالمغرب بعد دروس آثارها وخَبَّر أنوارها، ذكر بعضهم أنه اجتمع من المريدين بين يديه اثنا عشر ألفا وستمئة وخمسة وستون، ويعرف بالجزولي لكونه في عِدَاد "جزولة"، وهي قبيلة البربر بسوس الأقصى، توفي ساجدا في صلاة الصبح يوم الأربعاء من القعدة الحرام من عام تسعة وستين وثمان مائة للهجرة. <sup>11</sup>

#### 4 نسبته:

ذكر المؤلف أن نسبه عربي حجازي أنصاري، وذكر أيضا أن أحد شيوخه (علي بن سيدي العبدلي) أخبره أن نسبهم من الخزرج، فيما يقول شقيقه محمد القاضي أنهم من قريش، وقد سمع وهو صغير من أمه وأعمامه أن نسبهم ينتهي الى عامر بن صعصعة، ثم يقطع المؤلف في الأخير بأنه من عرب الحجاز . وفي هذا السياق يقول: «...ذِكْرُ ما تفضل به علينا الجواد الكريم من آلائه الجمَّة التي لا نحصي لها شكرا ولا نقدر لها قدرا، فأول ذلك أن جعل الله نسبنا عربيا حجازيا أنصاريا، على ما ذكره ولد عمنا سيدي محمد بن محمد بن عيسى المسعودي الحجازي الأنصاري، ناسخ الخلاصة والمرائي <sup>12</sup>، وكان فقيها نساخا لم أدركه، وهكذا يعرف بنسبه في كتبه، وزادني السيد علي بن سيدي العبدلي أن نسبنا من الخزرج، وذكر شقيقي وكان مطالعا أننا من قريش، وهم بنو النضير بن كنانة، وسمعت في صغري من أمي ثم من أعمامي يرفعون في نسبهم الى عامر بن صعصعة... لكن صح عندي بالثقة والرؤية أننا من عرب الحجاز...». <sup>13</sup>

وثبت المؤلف عمود نسبه كالآتي: «فكاتب هذا اسمه محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن مؤمن بن سعيد بن عثمان بن سلطان... الأنصاري». <sup>14</sup>

## 5 -أسرته:

أما عن أسرته، فهناك أخبارا كثيرة متناثرة في صفحات كتابه، تتعلق بوالده، وله فيها حظ وافر، وأمه، وإخوته، ولشقيقه محمد القاضي منهم النصيب الأكبر، وأبناء عمومته.. عاشت أسرة المؤلف بحاضرة تلمسان في القرن 11هـ/17م، ويبدو أن والده كان يسكن البادية، واستقر بتلمسان، وكان ميسورا، بل كان من الأغنياء الذين يتخذون لهم الخدم والحشم، وكان ممن ينتسبون لأهل العلم والتصوف.

تزوج والده من ابنة عمه (أم المؤلف)، التي كان يحبها، بعد أن طلقت من رجل آخر، ويخبرنا المؤلف أن والديه قد تابا معا على يد شيخين جليلين: «ثم تزوج أبي لابنة عمّه أُمّي، على سنة الله ورسوله، وعلى يد شيخه سيدي محمد بن عاشور بن سيدي علي بن يحيى السلكوني الراشدي، وعلى يد شيخها سيدي عبد الوهاب بن حميدة السويدي، نفعنا الله بهما، وذلك بعد توبتهما ورجوعهما الى الله على يدي الشيخين المذكورين... فجمع الله بينهما في الحاضرة، ورفضا البادية».<sup>15</sup>

\*يخبرنا المؤلف أن والده سليمان يلقب بـ (الصائم)،<sup>16</sup> وقد زهد في ثروته وجاهه بعد توبته، وخالط أهل العلم والتصوف، وكرس حياته للقرآن والعلوم الدينية<sup>17</sup>، وحج وجاهد وسهر على تربية ابنه (المؤلف)، تربية دينية صوفية. في هذه البيئة العائلية الصالحة التي تحترم أهل الولاية والصلاح والعلم، نشأ المؤلف محمد بن سليمان، فكانت نظرته للحياة والرجال تنحدر في المقام الأول الى الجانب الروحي.

كان والد المؤلف ممن يتلقون العلم والتربية الصوفية عن كثير من رموز هذا التيار الصوفي ورجالاته، هذا التيار الذي طبع الحياة الثقافية بطابعه، واكتسح النسيج المجتمعي التلمساني إبان القرن 17م، يقول المؤلف: «سألت أبي رحمه الله عن أشياخه، فقال: أما شيخي في العلوم، فهو الشيخ الإمام الخطيب سيدي محمد بن عاشور بن الولي الصالح سيدي علي بن يحيى السلكوني - كان اماما في الجامع العتيق بأجادير، تلقى عنه العلم لنحو العشرين سنة- وعلى يده تاب الله عليّ، وأما شيخي في الطريقة، فهو الشيخ الكامل الرباني سيدي عيسى بن محمد الدنيدني».<sup>18</sup>

عاش والده حتى أدرك وصاحب سبعين شيخا من أهل التصوف، يقول المؤلف: «حدثني والدي رحمه الله، قال: أدركت نحو من سبعين شيخا من الذين عرفتهم، كلهم صاروا الى رحمة الله».<sup>19</sup>

كان والد المؤلف منتسبا الى الطريقة الشاذلية، من طريق سيدي أحمد بن يوسف الملياني، ملتزما بأوراد الطريقة وطقوسها، وكان المؤلف أيضا ينتسب الى نفس هذا المشرب الروحي، يقول المؤلف متحدثا على لسان والده: «...إن هذه الأسماء التي قلتها لك، هي التي أعطاهها لي الشيخ البركة، أعجوبة دهره، أبو مهدي سيدي عيسى بن محمد الدنيدني، نفعنا الله به، وهو أخذ عن الشيخ سيدي عبد العزيز الحاج، وهو أخذ عن الشيخ الكامل القطب الواصل سيدي أحمد بن يوسف الراشدي نسبا الملياني، نفعنا الله ببركته آمين».<sup>20</sup>

يشير المؤلف الى والده باعتباره شيخا صالحا، نقل عنه كثيرا من الفوائد والحكم والأذكار والتوجيهات، وله قصائد شعبية، ذكر بعضها في كتابه، وكان المؤلف يتبرك بها، ويتلوها في الشدائد لأجل كشف الهموم ورفع الغوم ودفع البلايا والعوارض، وقد ذكر المؤلف متحدثا عن بركة والده قائلا: «وما من مسألة عظمت وهمي أمرها، إلا كشفها الله على يده، رضي الله عنه وأرضاه عنا».<sup>21</sup>

وقد دعا الوالد للمؤلف ولصنوه محمد القاضي دعاء مطولا، ملخصه أن يجعلهما الله من أهل العرفان والصلاح، وأن يختم لهما بخاتمة أهل الصفاء والفلاح.<sup>22</sup>

يذكر المؤلف أن والده سكن أجادير، وكان حيا وهو في نحو الأربعين من عمره<sup>23</sup>، فإذا عرفنا أن مولد المؤلف كان بتاريخ: 1014هـ/1605م، فمعنى ذلك أن والده عاش إلى ما بعد سنة: 1054هـ/1644م، لكننا لا نعرف على وجه التحقيق متى توفي، لكن ضريحه معلوم، وهو مجاور لجامع أجادير، يشير المؤلف في هذا الصدد: «زرت معه-أي مع شقيقه محمد القاضي- ذات يوم ضريح والدنا رحمه الله، وهو مجاور لجامع أجادير، فدعونا له بما حضرنا».<sup>24</sup>

\* وأما بالنسبة لأمه فالظاهر أنه فقدتها مبكرا، حيث يذكر أنها مدفونة في روضة الشيخ سيدي محمد بن رحمة.<sup>25</sup>

\* ويذكر المؤلف أن له إخوة وأخوات وأبناء عمومة، إحدى أخواته كانت متزوجة من الشيخ سيدي العبدلي،<sup>26</sup> أحد شيوخ المؤلف البارزين، وواحد ممن ساهموا بفاعلية في الحراك الاجتماعي والثقافي (الصوفي) والسياسي في تلمسان أثناء القرن 11هـ/17م، وسنذكر ذلك لاحقا.

يذكر المؤلف أيضا أنه كان صهرا للشيخ سيدي بلقاسم بن موسى بن صابر، إلا أننا لا ندري ما طبيعة هذه المصاهرة؟

ومن إخوة المؤلف يتردد اسمان في الكتاب، هما: أحمد ومحمد القاضي، وقد استأثر الأخير بالنصيب الأوفر من الأخبار، وقد جعله المؤلف من أهل الأحوال والتصوف<sup>27</sup>، ونقل عنه كثيرا من الرقائق والوصايا الروحية، كان يتلقى معظمها في شكل مرائي، أو في شكل هواتف (خطاب) عن الحق تعالى - على حدّ قوله -، كما أورد بعض أشعاره، كان في أغلبه بلهجة عامية.

ومن أبناء عمومته يذكر المؤلف عبد المؤمن بن بلعيد، ويبدو أنه كان من أهل التصوف أيضا، فهو يقول عنه أنه كان رجلا صالحا تقيًا، وأنه كان كثير الرؤية للنبي صلى الله عليه وسلم، ويشاوره في أمور كثيرة، ويسأله الرشاد والسداد،<sup>28</sup> وكان يقيم في البادية، وكانت خيمته ملتقى السالكين والفقراء، وفضاء لإقامة حلقات الحضرة (الذكر و الانشاد)،<sup>29</sup> ومن أبناء عمومته أيضا محمد بن محمد بن عيسى المسعودي، لم يدركه المؤلف، ولكنه أفادنا أنه كان فقيها ونسّاخا.

في هذا الجو الأسري العام تفتحت شخصية المؤلف وشب ونشأ، وربما نكون قد أسهنا في الحديث عن أسرة المؤلف، لكن لعلها ستساهم بقدر ما في تسليط الضوء على حياة مترجمنا في بيئته الأولى (النشأة العائلية)، وأهم العوامل التي ساهمت في رسم شخصية محمد بن سليمان، إن على المستوى النفسي، أو الاجتماعي، أو الديني، أو الثقافي.

يمدنا كتاب "كعبة الطائفين" بقائمة طويلة من أسماء الشيوخ والعلماء والصلحاء، الذين أخذ عنهم المؤلف كثيرا أو قليلا، أو لازمهم زمنا طال أم قصر، أو التقاهم عَرَضًا، أو أخذ عنهم بواسطة، وسنذكر بعضهم، مع ما هو متاح لدينا من معلومات عن كل واحد منهم، وسنركز على أشياخه الثلاثة الذين كان المؤلف يلازمهم ويصحبهم، وهم: سيدي موسى اللّالتي، صاحب قصيدة (حزب العارفين) موضوع الكتاب، وسيدي العبدلي، وسيدي بن صابر.

## 6 - شيوخه:

### أ - الشيخ موسى بن علي اللّالتي:

هو شيخ المؤلف، وصاحب القصيدة المسماة "حزب العارفين"، موضوع كتاب «كعبة الطائفين»، أحد أجداده دفين حمام الراشدية<sup>30</sup>، وروضته وزاويته مشهورتان هناك، وله أحباس.<sup>31</sup>

وقد نظم المؤلف قصيدة بالفصحى في مناقب أشياخه الثلاثة، موسى اللالتي، والعبدي، وابن صابر، نختزئ منها ما يتعلق بشيخه موسى اللالتي:

نَنْتِ إِلَى ثَانِي الشُّيُوخِ شَرِيفُهُمْ سَمِيَّ الْكَلِيمِ بِالْمَدَائِحِ مُوَلِّعٍ

يشير المؤلف إلى أن شيخه موسى اللالتي بلغ درجة "القطبانية" في التصوف،<sup>32</sup> والمؤلف يسبل عليه كثيرا من عبارات التبجيل التي توحى بسمو منزلته وعلو كعبه في التصوف كقوله: «أنشدنا شيخنا وبركتنا وقدوتنا سيدي موسى بن علي أفاض الله علينا من أنواره»،<sup>33</sup> ويشير أيضا إلى أن: «علامات المعرفة ظهرت على صاحب القصيدة-موسى اللالتي- في غالب أحواله وأقواله»<sup>34</sup>، ويشير المؤلف مبينا طبيعة هذه المعرفة الروحية التي اتصف بها شيخه قائلا: «حكى لنا بعض تلامذة الناظم رحمه الله، أنه أقسم لهم بعزة الله على أن الله عرفني أزقة عرشه العظيم زنقة زنقة كما عرفكم أنتم أزقة بلدكم هذه زنقة زنقة».<sup>35</sup>

نقل المؤلف لشيخه كثيرا من الكرامات والمراثي في صفحات عديدة من كتابه، وكان يعتبرها من المنح التي خصه الله بها، ودليلا على صدق توجهه وصلاحه وتقواه.

يشير المؤلف محمد بن سليمان إلى الشعر الكثير الذي انتجه الشيخ اللالتي، وهو في أغلبه شعر شعبي، وقد أخبر المؤلف أن شيخه أثر الشعر على النشر لسهولة حفظه واستيعابه، وقد أمره بالحفظ وحظه عليه، متمثلا بهذين البيتين:

عَلَيْكَ بِالْحَفْظِ بَعْدَ الْجَمْعِ فِي كُتُبٍ فَإِنَّ لِلْكَتَبِ أَفَاتٌ تُفَرِّقُهَا

الْمَاءُ يُغْرِقُهَا وَالنَّارُ تُحْرِقُهَا وَالْفَأْرُ يَخْرِقُهَا وَاللَّصُّ يَسْرِقُهَا<sup>36</sup>

يقول المؤلف مبينا شرف قصائد شيخه موسى اللالتي: «فإنها من أعظم الذكر والسماع، وقصائده (ض) كلٌّ في بابها ترياق لصاحبها، إلا من عَدَمَ الذوق والشم، فلا يكشف عن نقابها».<sup>37</sup>

ذكر المؤلف تاريخ وفاة شيخه موسى اللالتي، وكان ذلك يوم آخر شهر ذي القعدة سنة

1045هـ/1635م، وأشار المؤلف إلى مكان ضريحه بالمقبرة السنوسية، وسط مدينة تلمسان، قائلا: «وقبره مستور في خفاء شعب عن يسار الطريق الإسلامية المستقبلية، التي عن يسار قبر السنوسي الإحساني الحسني (ض)»<sup>38</sup>،

وحَدَّده بقوله: «ومحلّه في مقدّم الجبانة التي عن يسار الطريق المستقبل المارة، عن يسار قبر الشيخ السنوسي المستقبل الصاعد لجبل العبّاد، فهناك قبره بين ممر عن يمينه وبنيان عن يساره».<sup>39</sup>

## ب - الشيخ سيدي العبدلي:

هو: «سيدي محمد بن علي بن عبد الرحمن بن يوسف بن علي اليوحيدي، المدعو العبدلي الوطاسي»<sup>40</sup>، دفن البلدية التي تحمل اسمه الآن (بلدية سيدي العبدلي) بتلمسان، وليس في كتاب (كعبة الطائفين) ذكر لتاريخ ميلاده، ربما يكون قد ولد بعد منتصف القرن 16م.

يخبرنا المؤلف أن الشيخ العبدلي كان صهرا له، متزوجا من أخته، وكان يجمع بين العلم والتصوف، وأنه بلغ أيضا القبطانية في التصوف، وكان يتصدّر الإمامة بجامع الوزان، الواقع بباب الجياد حاليا. يفيدنا المؤلف أنه: «شَبَّكَ أصابعه<sup>41</sup> بأصابع سيدي العبدلي الوطاسي»،<sup>42</sup> وانتسب بذلك في سلسلة مشايخه، وأقرّه شيخا ملقنا ومرشدا، ويضيف المؤلف أنه كان من أصحاب والده وشيخه موسى اللالتي ومحمد بن رحمة، وكان له ولد اسمه محمد، له حظ في الفقه والتصوف كوالده، وأشار المؤلف أنه توفي في حياة والده. مما أفادنا به المؤلف عن الحياة الروحية والشخصية للشيخ العبدلي، أنه كان يقوم الليل ويصوم النهار، دائم الفكر، مشغول بالأوراد والأذكار في كل وقت وحين، مترنّم بالرقائق والمدائح النبوية والأشعار الصوفية، أما على المستوى الجمعي، فقد كان يضطلع بأدوار اصلاحية واجتماعية وجهادية في تلمسان، وكان يسعى دائما - كما يفيدنا المؤلف - لجمع الناس على كلمة سواء، وهذه الصفات والأدوار تجعل شخصية العبدلي تشدّ عن كثير من الشخصيات الصوفية التي عاشت في القرن 17م والتي كانت منغلقة على الذات، عاجزة على إحداث التغيير، فاقدة لأي قدرة على التعاطي الإيجابي مع محيطها، والمساهمة الفاعلة في الحراك الاجتماعي والثقافي والسياسي، في قرن طغى عليه التصوف الخرافي.<sup>43</sup>

وحول وفاته يقول المؤلف محمد بن سليمان: «..ومات عندنا قطب عصرنا العبدلي في طريق الجزائر لتسكينه الفتنة المذكورة- بين أهالي تلمسان والأتراك-..وبعد موته بنحو سنتين، قامت فتنة أعظم من الأولى...».<sup>44</sup>

فإذا عرفنا أن الفتنة (أو الثورة) الأولى التي انبرى الشيخ العبدلي للقيام بالوساطة والإصلاح بين أهالي تلمسان والحكام الأتراك لحقن الدماء، وقعت سنة 1035هـ/1625م كما أخبرنا بها محمد بن سليمان، استطعنا أن نحدد تاريخ وفاة الشيخ العبدلي، وهو تاريخ الفتنة الأولى نفسه، أي سنة 1035هـ/1625م، أو بعدها بفترة قصيرة على أقصى تقدير، قد لا تتجاوز بضعة شهور.

وما قاله المؤلف في مناقب شيخه العبدلي من الشعر الفصيح، قوله:

بدأتْ بِعَبْدٍ لِلَّهِ أَضَافَهُ      إِلَيْهِ وَفِيهِ لِلشَّدَائِدِ مَدْفَع  
بَرُورٍ تَوَدَّدَ وَرَأْيٍ مَسْدَدٌ      وَنَقْلٌ وَعَقْلٌ فِي الْمَعَارِفِ يَرْتَع  
بِإِخْلَاصِهِ فَاقَ الْمَعَاصِرَ قُطْبُهُمْ      إِمَامَ الْهَوَى يُجَالِحُمِي مَسْوَرَعٌ<sup>45</sup>

ت - الشيخ بلقاسم بن موسى بن صابر:

ذكر المؤلف عنه معلومات في عدة مواضع من كتابه، ووصفه بالعالم العامل والخطيب المدرس الكامل، وبأنه "عروس الصالحين"، وقال عنه أنه كان ملتزماً بالكتاب والسنة في جميع حركاته وسكناته، مولعاً بمطالعة كتب التصوف والحديث وعلوم القرآن، متصدراً لتدريس علم التوحيد، وقد سخر ماله للعلماء والمريدين والفقراء، وكان منزله لا يخلوا من الزائرين والضيوف، وأنه تميز بالكرم الحاتمي، على حد قوله.

يخبرنا المؤلف أنه كانت بينه وبين الشيخ بن صابر مصاهرة أيضاً، وقد كان شيخاً لوالده.

يشير المؤلف أن بداية الصحبة الحقيقية والمعاشرة لشيخه بن صابر بدأت مع سنة 1057هـ، قائلاً: «في سنة سبع وخمسين عاشرته؛ بل جاورته عدة أشهر، فتحققت تركية الشاهدين، وتصديق الرؤيا برؤية العين، وليس الخبر كالعيان ولا اليقظة كالمنام، قال الإمام علي: من أثنى عليه رفقاؤه في السفر ومجاوروه في الحضر، ومعاملوه في الأسواق، فلا تشكوا في صلاحه».<sup>46</sup>

نظم المؤلف قصيدة من الفصيح في حق شيخه بن صابر يذكر فيها صحبته له وأخذه للعهد على يديه، ويلخص فيها بعض مناقبه وخصاله، نجتزأ منها الأبيات التالية:

نظرتُ رجالَ الوقتِ للصُّحبةِ التي      تَوَاصَى بِهَا [كَذَا] وَمَنْ لَهُ يُرْجَعُ  
تَوَالِي وَلِيًّا لَا يَضِيعُ عَهْدُهُ      وَيَجْلُبُ لِي الْخَيْرَاتِ وَالشَّرَّ يُدْفَعُ  
نَعْمَا عُرُوسِ رَامِ قَلْبِي وَلَا عَهْدَ      بَعْدَ اسْتِخَارَةِ الْقَصْدِ مُهَيَّعُ  
صَبْرْتُ إِلَى أَنْ تَأْدَى مِنْ غَيْرِ مُخْبِرٍ      يُتَرْجَمُ عَنْ سِرِّي لَهُ وَهُوَ يَرْكَعُ  
صَرَفْتُ إِلَى الشَّيْخِ الَّذِي بَانَ فَضْلُهُ      وَعَنْبَرُ سِرِّهِ مِنَ الْمِسْكِ أَطْوَعُ  
صِلَاتِي تَوَاصَلَتْ بِسَلْسَلَةِ الْهَدَى      عَلَى يَدِ مُقْتَدَى إِمَامِ سُمَيْدَعُ

إلى أن يقول :

ضياءُ لُبِّه يكسُوهُ ثوب جَماله ترى وجهَهُ يزهُو ونوره يلمَعُ  
عَنِيتُ بما قُلْنَا أبا القاسم المِكْنَى بِطَيْرٍ إِذَا غَنَّى لَهُ الروح تسمَعُ

## 7 ثقافة الشيخ محمد بن سليمان الصائم التلمساني:

- أورد المؤلف في كتابه "كعبة الطائفين" معلومات مفصلة عن تكوينه العلمي والثقافي، ومن ثمة يمكننا أن نؤشر مساره الثقافي في هذه النقاط:<sup>47</sup>

- حفظ القرآن الكريم وهو في سن الثامنة بقراءتي ورش وقالون، رسماً ورواية، وختمه ثمان مرات رسماً وأداء.
- انتقل المؤلف بعد ذلك، كما قال لـ "دار العلم والتقوى" بقرية مجاجة<sup>48</sup> فزاد هناك ختمة أخرى للقرآن الكريم، وقرأ عقائد السنوسي الثلاث، والأجرومية، والقرطبية، على الشيخ سيدي عمر أترار، وسنّه يومئذ أحد عشر سنة.
- ثم قفل المؤلف راجعاً إلى تلمسان، وصار يقرأ القرآن بروايته ورش وقالون على الأستاذ سيدي عمر بن يوسف، وعلى شيخه سيدي الحسن الدراوي المغربي، ويذكر المؤلف أنه حفظ الربع الأول من رسالة ابن أبي زيد بشرح الفاكهاني، على الشيخ سيدي الحاج محمد بن قاسم الموبل، كما كان يحضر في مجلس اقراء سيدي محمد الغشوي على (الرسالة)، وصحيح البخاري، وتفسير القرآن للثعالبي والسيوطي، وحكم بن عطاء بشرح بن عباد النفزي.
- لقّبه الشيخ بلقاسم الدراجي في تلمسان بـ "مالك الصغير" لشدة نبوغه في الفقه المالكي.
- قرأ مختصر ابن الحاجب على شيخه سيدي محمد بن رحمة، وقرأ إحكام القرآن في الجامع العتيق بأجادير، ومختصر خليل، والألفية، والتلمسانية، والرسالة والسلم في المنطق، والسراج للشيخ سيدي عبد الرحمن الأخصري.<sup>49</sup>
- وقرأ أيضاً صحيح البخاري على الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن علي أنكروف، وحضر عنده في اللامية والخزرجية، وكان ملازماً لمجلس إقراء شيخه العبدلي في الحديث و التفسير والحكم العطائية ومختصر خليل.
- يطلعنا المؤلف أنه سافر إلى مستغانم، واحتكّ بطلبة العلم فيها، وقرأ هنالك على يد خيرة علمائها، منهم الشيخ بلقاسم بن عثمان الولاّجي، والشيخ محمد الزهري .. وبزّ أقرانه في كثير من العلوم، حتى صار المؤلف كما قال: « أدلول في جميع ما قرأت بمستغانم ».

- زار المؤلف المغرب الأقصى، حيث دخل وجدة وصاحب بعض مشايخها وصلحائها، كما دخل فيجيج، ونزل بزواوية العبيد، وحضر مجلس إلقاء الشيخ حدّوش بن موسى البريشي، وسيدي محمد الحاج السلاوي، وسيدي محمد الشّموري، وغيرهم.
- بعد هذه الإطالة على المسار الثقافي للمؤلف وتكوينه العلمي، كما سجله بنفسه في كتابه، آن لنا أن نتحدث عن طبيعة ثقافته من حيث هويتها، ومستواها، و ملامحها:
- كان للمؤلف اطلاعا متميزا على كتب التاريخ والمصادر الفقهية والصوفية وغيرها، هذا ما تؤكد اقتباساته الكثيرة، وللمؤلف أيضا اقتباسات مكثفة ومتكررة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات مخطوطه من هذين المصدرين.
- لكن رغم هذا الثراء والتنوع الذي نلمحه في نشأته العلمية، إلا أننا لا نستطيع الجزم بأن المؤلف محمد بن سليمان بلغ درجة الاجتهاد؛ بل كانت تربيته صوفية، وله تكوين متين في هذا الجانب إلى حد ما، ومطلعا على مصادر كثيرة في التصوف والفقه والعقائد والتاريخ..
- ثقافته هي ثقافة معاصريه، يغلب عليها الطابع الصوفي ويقل فيها الإبداع، شأن الجو الثقافي العام السائد في بلادنا بعامة، وتلمسان بخاصة في ق 17م، حيث اكتفى العلماء آنذاك بدراسة أعمال السابقين، بنظرة يغلب عليها التقديس المفرط، فكثرت الشروحات والمختصرات في أعمالهم<sup>50</sup>، كما هو حال كتاب «كعبة الطائفين» الذي انبرى فيه المؤلف لشرح قصيدة شعبية صوفية لشيخه موسى بن علي اللالتي، مصبغا عليها كثيرا من الحالة والقدسية.
- اتسمت ثقافته بال محلية (تلقيا وقراءة) إلى حد بعيد، فقد التهم المؤلف كتب الشيخ السنوسي لاسيما "العقائد" حفظا ودراية، وأتقن القراءة بورش رسما ورواية، وتمكن من مختصر خليل والأجرومية والقرطبية ورسالة أبي يزيد، وتفسير الثعالبي، وحكم بن عطاء بشرح بن عباد النفزي، ومختصر بن الحاجب، والتلمسانية، وكتب عبد الرحمن الأخصري.. لهذا نقول أن ثقافة المؤلف في عمومها يرتبط النصيب الأكبر منها بالثقافة المحلية.
- ينبئنا كتاب «كعبة الطائفين» بغزارة ثقافة صاحبه، حيث تبدو ظاهرة الجمع بين عدة علوم ومعارف بادية للعيان، - وإن كان منطلقه صوفيا كما أسلفنا - ففيه الأخبار والأنساب والتراجم والمناقب، والتفسير والفقه والحديث، وعلم الحروف والجداول، والأمثال والحكم والشعر الفصيح والشعبي، والحكايات والنوادر والطرائف، والكرامات والرؤى، والاستطرادات المتنوعة، وما ضخامة الكتاب بأجزائه الثلاثة إلا دليلا على هذا المسار الذي سلكه.<sup>51</sup>

- تتجلى في المؤلف ظاهرة الحفظ، فيبدو أنه كان يمتلك ذاكرة قوية، استوعبت الأعلام بأسمائها وألقابها وكنياتها وتواريخها، واستوعبت كثيرا من معارف عصرها، وهذا ليس غريبا على المؤلف فقد عرفناه كما سلف يحفظ القرآن بروايتين، فضلا عن الأجرومية والقرطبية وعقائد السنوسية، فقد كان رحمه الله حافظا من الطراز الأول.

## 8 مذهبه الصوفي:

المؤلف كان شيخا متصوفا، محبا للأولياء والصالحين، مشغلا بالممارسات الصوفية، منكبا على تهذيب النفس بالمجاهدة والرياضات الروحية، فقد صافح أو شبك يده مع كثير من الأولياء والصالحين من شيوخ التصوف وناولوه السبحة والأوراد والأذكار<sup>52</sup>، وأخبرنا أيضا أنه كان يعتكف مع شيخه اللالتي في الكثير من المساجد والمقامات، منها اعتكافه بجامع سيدي يعقوب الحاج بـ (ولهافة) للمطالعة والعبادة.

المؤلف يشيد كثيرا بالتصوف، ويعتبر أنه ليس في الأرض علم أشرف منه ولا طريق أفضل منه، وهو يأمر الناس بطلبه وحب أهله، لأنهم أولياء الله وخاصته من أهله: «فهؤلاء هم أهل الأحوال الذين درجوا على منهاج المصطفى، وورثوا بعض مقاماته ظاهرا وباطنا.. وهم ساداتنا في الدنيا والآخرة»<sup>53</sup>.

انتسب المؤلف إلى الطريقة الشاذلية (نسبة لأبي الحسن الشاذلي) على يد شيخه سيدي بلقاسم بن موسى المدعو بن صابر، وهو أخذ عن الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد المدعو (سيدي الشيخ)، عن سيدي محمد بن عبد الرحمن السهلي، عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني الشيخ الكامل والقطب الواصل<sup>54</sup>. وفي هذا السياق يقول الشيخ محمد بن سليمان: «صافحني الشيخ.. بن صابر، ولقني الأسماء، كما صافحه ولقنه شيخه الذكر البحر الزاخر سيدي الشيخ عبد القادر بن محمد بن سليمان.. وناولني السبحة وشابكني، وأكد علي في المحبة والتقوى..»<sup>55</sup>.

ويطلعنا المؤلف إلى بداية التلمذة والصحبة للشيخ بن صابر، والانتظام في السلسلة الشاذلية بشيء من التفصيل والإعجاب الممزوج بالنظرة الكاريزمية، قائلا: «إني لا أطلبه بنفسي، وإنما أطلب صحبته بربي طلبا للتوفيق والإعانة، فإن عَلِمَ الله نَفَعَنَا على يديه دعانا هو إليه.. ففرغت إلى استخارة من بيده مقاليد الأمور، ولم يعلم ما في ضميري إلا العليم بذات الصدور، فو الله ما استتُمت استخارتي على نيتي، وأنا في غرفة من عزل فوق سجادتي، إلا والنداء علي من قبل الشيخ.. فأتيته ودخلت عليه، وسلمت وجلست بين يديه.. فقال: نحن إخوة في الله، ونريد أن يدخلك الله في سلسلة أشياخنا الكرام، لعل الله أن يلحقك بهم، فقلت: حبا وكرامة»، وأورد المؤلف سلسلتهم الشاذلية، نسبة لأبي الحسن الشاذلي.

يبدو المؤلف في كتابه ممن يمجّون التصوف المنحرف، فهو يدعو صراحة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة، في عصر غلب عليه الفكر السطحي والدروشة والدجل، وادّعاء الولاية صدقا أو كذبا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ينقل لنا المؤلف كثيرا من المراتي الصوفية والكرامات والحكايات الممزوجة بالأساطير، بكثير من السداجة أحيانا.<sup>56</sup>

مهما يكن فالمؤلف، يخبرنا كما مر بنا أنه نال حظا من علوم الشريعة في طور تكوينه الأول، ونراه يدعو بشكل صريح إلى ضرورة الالتزام بالشريعة والحقيقة معا: «من أعظم الفسوق نبذ الشريعة وايداء أهل الحقيقة»<sup>57</sup>، ويقول أيضا: «كل كتاب لا يوافقه الكتاب والسنة المتوافقين، فهو مردود، وإذا لم يجمع بين الشريعة والحقيقة لا ينتفع به»<sup>58</sup>، كما يحث على اتباع منهج السنوسي وطريقته القائمة على العلم بأحكام الشريعة وجواهر الحقيقة: «فإنها والله، سهلة المأخذ قريبة المقصد»<sup>59</sup>، كما يقول المؤلف.

وكان المؤلف انطلاقا من قناعاته الصوفية القائمة على ضرورة التلازم بين الحقيقة والشريعة كثيرا ما ينفر ويضجر ممن لا يوافق ظاهره باطنه في القول والعمل، وقد حارب الكثير من المظاهر الانحرافية في التصوف، من ذلك ما أشار به مغفرا من بعض أقرانه، إذ يقول: .. لم يقبله خاطري لأن الداء كامن وهو مخالفة الظاهر للباطن، ثم لقيته بعد وفاة الناظم مرتين فلم أر منه ما يقر العين، ثم توفي عفا الله عنه بعد الناظم بأربع سنين ودفن بولهاصة، ولم يترك بعده من يرثه ولا من ينفعه لا حسا ولا معنى..<sup>60</sup>

يقول المؤلف في نفس السياق: سافرت مع رفقة فيها غتاب فتغير حالي، فدخلت مستغانيم وسألت عن الصلحاء الأحياء لأزورهم فدللت على سيدي عمر بن خليفة بالمغراوية، فما لبثت حتى جمعني الله به عند سيدي معزوز [كذا] فذكرت له ما أصابني من التغير فتفرس ما بي وقال: إني اشتكيت إلى شيخي سيدي عبد المالك فقال لي أنت مريض القلب، والقلب يمرض من مخالطة أبناء غير الجنس ومن طول الأمل فتحققت أنه كوشف بحالي قبل أن أبوح به لأحد، ثم قال لي: الله يعافيك ويشافيك، فذهب عني ما أجده ببركته، ولذلك قالوا: ليس بلييب من لم يصف شكواه لطبيب.<sup>61</sup>

ولعل مؤلفنا كان في كل ذلك -أقواله وممارساته- متماهيا مع مواقف مشايخه في السلسلة الشاذلية، منهم الشيخ أحمد بن يوسف الملياني خريج مدرسة محمد بن يوسف السنوسي التلمساني (ق 9هـ/15م)، وأحد تلاميذ

أحمد زروق صاحب «قواعد التصوف» فالملياني كان يناول تلاميذه الأذكار، ويسميههم الفقراء، ويمارس حلقات الحضرة (السماع أو الذكر والانشاد).<sup>62</sup>

وقد تأثر المؤلف بالشاذلي نفسه، مؤسس الطريقة الشاذلية، الذي عرف عنه ثورته على التصوف الفلسفي والنخبوي، لأنه تصوف الخاصة لا يفهمه إلا القلة، والدعوة إلى إنشاء تصوف شعبي يسير مع جميع مرافق الحياة، كما يسير معها القرآن والسنة، محاولاً في ذلك التوفيق في خطابه بين الشريعة والحقيقة (الظاهر والباطن)، وعرف عنه أيضاً أنه كان لا يتحرج من أكل الطيبات، ولبس الحسن من الثياب، وركب الفاره من الدواب<sup>63</sup>، وقد كان هذا دأب محمد بن سليمان الذي عرفناه ينحدر من أسرة ذات غنى وجاه، ويمتحن التجارة، ويأخذ بأسباب الرزق، ويغزو ويجاهد، ويعيش حياته ويمارس تصوفه.

يبدو لنا المؤلف من خلال كتابه بشخصيتين، شخصية الصوفي المعتدل المتحرر، المتصدّي للتصوف الخرافي الساذج، المنتقد لسلوكيات مجتمعه (من جهل وطمع وخصومات واستغلال)، وشخصية أخرى تسهب في الحكايات الأسطورية وتخلطها بالكرامات المعقولة، وتكثر من المرائي (يحتفظ الكتاب بحظ وافر منها)، ولو أن هذه الظواهر لها ما يبررها في عصر كثرت فيه الطرق الصوفية، وعمّ فيه التصوف الحقيقي والمزيف، وكان يشهد تردياً على أكثر من صعيد.<sup>64</sup>

## 9 - مواقفه من قضايا عصره:

في كتاب «كعبة الطائفين» مواقف كثيرة للمؤلف محمد بن سليمان حول بعض القضايا السياسية والدينية والثقافية والاجتماعية التي طبعت المجتمع التلمساني في القرن 11هـ/17م:

- ففي الجانب الديني والثقافي، مرّ أمامنا في العنصر السابق - (مذهب الصوفي) كيف حاول المؤلف أن ينأى بنفسه عن التصوف البدعي المبني على الدجل والخرافات، والدعوة إلى التصوف الحقيقي القائم على العلم والعمل والوعي الاجتماعي، وهو موقف المتصوف العارف الذي يجمع بين الحقيقة والشريعة يأخذ بالأسباب.

وكان المؤلف مختلطاً بعلماء وأولياء عصره في حاضرة تلمسان، متواصلاً معهم، ومتأثراً بهم، وقد تألم محمد بن سليمان وحزن على فراق من غيبهم الموت، خاصة أولئك العلماء الذين ماتوا أثناء الوباء سنة 1058هـ: يقول المؤلف: نذكر من فقدناه من الأخلاء العلماء بالوباء سنة ثمان وخمسين، وفيمن ذكرت قلت:

ذهب الخيارُ وغاب عني خيارهم      وبقيتُ في خلف آثرهم يخلف!

فرّق الوباء عصابة فتفارقوا      وتلاحقوا وتحققوا ما أسلفوا

شهدت عليهم شهادة بشهادة ومفازة ورزاة ما طفف—وا

- في الجانب الاجتماعي يبدو من خلال كتابه محتكا بأطيايف مجتمعه علماء وصلحاء ومع عامة الناس، يسعى بمعية شيوخه لاسيما بن صابر والعبدي في رفع الغبن عن الناس، متحسسا شواغلهم وهمومهم- المادية والاجتماعية والسياسية- متصديا لشراهم من الجهلة والانتهازيين وشيوخ الدجل والدروشة، وقد وصف المؤلف عصره بالصعب والعسير، قائلا: «..ولم أجد في زماننا هذا الفاسد إلا جهولا غبيا أو متفقها عريًا»<sup>65</sup>، ويقول في موضع آخر: «بل لا تجد في هذا الشطر الأخير من القرن الحادي عشر إلا العقارب واللفاع وأهل الشقاق والنزاع، وابتلينا فيه بتصدير الهمج الرعاع المؤثرين سبل الشر والابتداع، المؤثرين أهل الزيغ والاقتطاع»<sup>66</sup>، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن الشيخ محمد بن سليمان الصائم كان يعيش قضايا عصره ومجتمعه، فانتدب مصلحا وواعظا يعالج ما اعتراه من انحرافات وتناقضات اجتماعية، وفساد أخلاقي.

- أما في الجانب السياسي، فتتجلى مواقف المؤلف بوضوح في الفتنتين (أو الثورتين) اللتين وقعتا بين أهالي تلمسان والأتراك<sup>67</sup>، وكيف أنه لم يقف موقف المتفرج، بل ساهم رفقة شيخه العبدي في تهدئة الأوضاع العامة، وطمأنة النفوس المروعة من جهة، وزجر القائد التركي محمد بن سوري في مقره بالمشور من جهة أخرى، وفي هذا الصدد يقول المؤلف متحدثا عن الفتنة الأولى: «.. فدخلت مع الشيخ العبدي بعد ظهر الجمعة على الأمير -محمد بن سوري- فزجره ووعظه»<sup>68</sup>، ودخول المؤلف مع شيخه على القائد التركي فيه دلالة على أن محمد بن سليمان كان يتمتع بسلطة روحية وعلمية واجتماعية في المجتمع التلمساني، فهو واحد من أعلامهم، وإذا لم يكن كذلك، فمن يكون هو حتى يدخل شخصا على القائد التركي؟!

ومن أدواره ذات الطابع الاجتماعي السياسي مساهمته مع شيخه العبدي الذي جعل سكناه بباب الجياد بمثابة زاوية يلجأ إليها المضطهدون، مسلمون وذميون، خاصة من جور الأتراك وظلمهم، يقول المؤلف: «حضرت يوما مع الشيخ العبدي في داره من حارة باب الجياد، وقد اجتمع عنده خلق كثير، مسلمون وذميون، هاربون من جور الولاة، يطعمهم ويسقيهم، ويشفع كل سبت فيهم، حتى يقضي الله حوائجهم على يديه.. وقال له رجل من أولئك الخائفين: يا سيدي، لم يبق في هذا الزمان حرّم للمساكين إلا في دارك، وفي مقام الشيخ أبي مدين، فقال له: نعم يا ولدي، لكن الشيخ أبا مدين حرّم فقط، ونحن إن شاء الله الحرّم عندنا والطعام والإصلاح بين الناس، وصدق (ض)، فإن الحي فائدة ومائدة وأخلاق زائدة»<sup>69</sup>.

يخبرنا المؤلف أيضا أنه شارك الشيخ العبدلي رفقة والده في الغزو مرارا<sup>70</sup>، حيث يقول في سياق الحديث عن خصاله: «هذا شيخنا.. العبدلي كان يصوم ويقوم ويغزو ويغيث الملهوف ويصلح بين المتباغضين، وكان من العلماء العارفين، صاهره والدي رحمه الله، وأعطاه مما أعطاه الله محبة في الله، غزوت معه مرارا.. مات رحمه الله في إيابه من [كذا] الجزائر للإصلاح بين أهل تلمسان مع الأتراك».<sup>71</sup>

للمؤلف محمد بن سليمان شعر فصيح (في أركان بيت الولاية) وتعرض في الأبيات الأولى منها إلى الحاكم التركي محمد بن سوري الذي أرهق ساكنة تلمسان بالظلم والجور، يقول المؤلف:

ترقب يوم موتك يا فلان وراهقك الرحيل عن الديهار  
ولم يعطاك ما جمعت فيها فلا تنسى النصيب مع الإيثار  
ألم تسمع لقوله كل نفس بكأس الموت ذائقة المـرار  
ولا تستبعدن له هجومـا عن بغة حذار يا حـذار  
فلا تستأنس بما تـراه يفارقك المجلس مع المـزوار  
ولا يُغني خليلك عنك شيئا من الإله ذي البطش القهار<sup>72</sup>

- المؤلف كان يشير إلى العثمانيين باسم (الأتراك) أحيانا، وأحيانا أخرى يطلق عليهم (العجم)، وقد أشار غير ما مرة إلى ظلمهم وتعديهم على الرعية بحق أو بغير حق، من ذلك ما نقله في هذا الكلام: «.. وذلك أن ترك تلمسان خرجوا بأمرهم عشية بنية أخذ النجع المذكور (القافلة)، فقلت لإخوتي ومن حضر من أجادير: .. قافلة الرجا يا صاحب الرجا إليك الملجأ، فاستعنت بالملك الحق، واستعملت تلك الليلة مسألة ذكرها الواد ءاشي لتفريق شمل الغزاة الظالمين في خواصه من قوله تعالى (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون .. مغرقون) فشئت الله شمل ياجوج وماجوج بريح عاصفة حتى قربوا من الهلاك ورجعوا مذمومين خائبين بحمد الله رب العالمين، فعليك به».<sup>73</sup>

- كما أن المؤلف كان يُلقب أحيانا بالمجاهد، ذلك أنه شارك والده وبعض المشايخ في عديد المرات الجهاد لدحر الإسبان المحتلين عن وهران بخاصة وعن السواحل الجزائرية بعامة، وللمؤلف قصيدة ذات اتجاه سياسي وطني قالها ساخطا على القبائل المتعاونة مع الإسبان الغزاة مستنكرا تملقها للنصارى المغتصبين لوهران، نجتزا منها هذه الأبيات:

الحمد لله العظيم الشَّان ثم صلاته على العدنان  
تعاونوا معاً شِرِّ الاخوان واستعملوا كلاماً في البُنيان  
فكيف يا قبائل العِربان عافاكم الله من الشَّيطان

أَتَّخِذُوا هَارُونَ فِي وَهْرَانِ      يَهُودِيَا مَلْعُونًا فِي الْقُرْآنِ  
مَعَ دُكَيْكَ كَافِرٌ نَصْرَانِي      يَعْْبُدُ يَا وَيْلَاهُ عُوْدَ فَانٍ  
تُبَايِعُوهُمْ عَلَى الْإِثْمَانِ      نَسِيتُمْ اللَّهَ لَدَى الْإِحْسَانِ<sup>74</sup>

خاتمة:

- من حيث المستوى الثقافي والمعارف العلمية، يبدو لنا المؤلف من خلال تكوينه المعرفي أولا، وما حفل به كتابه من مادة ضخمة ومتنوعة ثانيا، ذو ثروة أدبية واسعة، وثقافة دينية (فقهية وصوفية) وافرة ومتجذرة، فالمؤلف كان إماما في مسجد باب الجياد،
- كان الشيخ محمد بن سليمان صوفيا متفاعلا مع الحركة الصوفية والثقافية في وقته (ق 11هـ/17م)، متأثرا بها ومؤثرا فيها، وعلى اتصال مستمر بعلمائها وأوليائها ودراويشها، وكان له حُظوة لدى أغلبهم، ويظهر أنه كان ممن يوفقون بين الشريعة والحقيقة (التصوف والفقه).
- ومن حيث المواقف الاجتماعية، كان الشيخ محمد بن سليمان متفاعلا مع أطياف مجتمعه علماء وصلحاء ومع عامة الناس، يسعى بمعية شيوخه لاسيما بن صابر والعبدلي في رفع الغبن عن الناس، متحسسا شواغلهم وهمومهم - المادية والاجتماعية.
- في الجانب السياسي، تتجلى شخصية الشيخ محمد بن سليمان ومواقفه - الوطنية - بوضوح في الفتنتين (أو الثورتين) اللتين وقعتا بين أهالي تلمسان والأتراك، (وإن لم يكن مفهوم المواطنة قد نضج بشكل جلي في تلك الفترة)، وفي وساطاته بين ساكنة تلمسان والسلطة التركية.

### هوامش البحث:

<sup>1</sup> يقول المؤلف: «لما أن فرغ الناظم رحمه الله من ذكر السلف الصالح، عقبه بذكر السلف الطالح، تبشيرا وتحذيرا وترغيبا في الاقتداء بالمنعم عليهم من النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا... وتنفيرا من متابعة المغضوب عليهم ولا الضالين من العلماء غير العاملين والجهلة الظالمين»، ينظر: كعبة الطائفين، ج 2، ص: 01

<sup>2</sup> نورد من ذلك عل سبيل المثال:

- أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج 1، ص 2، موفم للنشر، الجزائر، دط، 1991

- عادل نويهض، أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط3، 1989

<sup>3</sup> ينظر: اسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم، ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث، بيروت، دط، دتا، ص: 270.

<sup>4</sup> قدم أبو القاسم سعد الله دراسة أولى عن المخطوط موسومة بـ (كعبة الطائفين، مخطوط جزائري من القرن السابع عشر)، المجلة التاريخية المغربية، عدد 7-8، جانفي 1977، تونس، ص: 61-68. ونفس الدراسة -تقريبا- قدمها عن المخطوط أيضا في كتابه: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص: 159-175، ثم قدم ثالث دراسة عن الكتاب بعد حصوله على نسخة باريس (نسخة كاملة)، كانت بعنوان: الجديد عن كتاب "كعبة الطائفين"، في كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" ج 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1990، ص: 209-230، ومهما يكن فقد حاول أبو القاسم سعد الله أن يضيف أضواء على حياة محمد بن سليمان انطلاقا من مخطوطه.

<sup>5</sup> هو سيدي عبد القادر بن محمد بن سيدي سليمان بن أبي سماعة، المدعو سيدي الشيخ، جد أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الغربي لبلادنا، وصاحب المنظومة المشهورة في التصوف المسماة «الباقوتة»، ومؤسس الطريقة الشيخية، ولد حوالي 1533م وتوفي سنة 1616م.

- ينظر: - عبد القادر بن محمد (سيدي الشيخ)، الياقوتة في التصوف، المطبعة المركزية، وجدة المغرب، دط، دتا، ص: 6-7-8.
- Louis Rinn- Marabouts et khouan- Etude sur l'islam en Algérie, Adolf Jourdan, Librairie éditeurs- Algie-1884, p : 349-351
- MilladAissa - Alyaquouta, Poème mystique de sidi chikh- Essai d'édition critique et étude du texte selon la tradition Soufi entreprise nationale du livre- Alger, 1986, P : 6, 7, 8
- <sup>6</sup> محمد بن سليمان الصائم التلمساني الملقب بالجزولي، كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حزب العارفين، (مخطوط) نسخة المكتبة الوطنية بباريس، قسم الشريقات، رقم: (2460) بروكلمان 1009/02، ج3، ص: 264.
- <sup>7</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 272
- <sup>8</sup> المصدر نفسه، ج1، ص: 364.
- <sup>9</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 264.
- <sup>10</sup> ينظر: - المصدر نفسه، ج1، ص: 12، 24، 25.
- <sup>11</sup> ينظر:
- محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وماهما من الأنباغ، تحقيق وتعليق: عبد الحميد وعبد الكريم مراد، دار المغرب، فاس ط 1، 1994، ص: 16، 17.
- حسن جلاد، سبعة رجال مراكش وأدوارهم السياسية والتربوية والاجتماعية، ردمك، مراكش، ط5، 2007، ص: 35-40.
- عبد العزيز بنعبد الله، معلمة التصوف، ج2، دار نشر المعرفة، الرباط، ط1، 2001، ص: 84-87.
- <sup>12</sup> بالنسبة لكتاب المرائي، عنوانه هو "تحفة الناضر ونزهة المناظر" لـ محمد بن عبد الله الفراوسي الزواوي البجائي، من علماء القرن 9هـ/15م، عاش في قسنطينة وتلمسان... ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1981، ص: 94.
- <sup>13</sup> محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ج3، ص: 263-264.
- <sup>14</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 264.
- <sup>15</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 264.
- <sup>16</sup> المصدر نفسه، ج1، ص: 300.
- <sup>17</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 98-96.
- <sup>18</sup> محمد بن سليمان الصائم التلمساني الملقب بالجزولي، كعبة الطائفين، ج2، ص: 10.
- <sup>19</sup> المصدر نفسه، ج2، ص: 222.
- <sup>20</sup> المصدر نفسه، ج1، ص: 301.
- <sup>21</sup> ينظر: المصدر نفسه، ج3، ص: 10.
- <sup>22</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 57.
- <sup>23</sup> المصدر نفسه، ج2، ص: 182.
- <sup>24</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 57.
- <sup>25</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 02.
- <sup>26</sup> المصدر نفسه، ج2، ص: 108.
- <sup>27</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 56، 55، 54.
- <sup>28</sup> المصدر نفسه، ج1، ص: 443، 442.
- <sup>29</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 27.
- <sup>30</sup> تسمى الآن بلدية حمام بو حنيفة، تقع على بعد حوالي 18 كلم من مدينة معسكر غرب الجزائر.
- <sup>31</sup> محمد بن سليمان الصائم التلمساني الملقب بالجزولي، كعبة الطائفين، ج1، ص: 299.
- <sup>32</sup> ينظر: - المصدر نفسه، ج3، ص: 17.
- المصدر نفسه، ج1، ص: 133.
- <sup>33</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 243.
- <sup>34</sup> المصدر نفسه، ص: 04.

- <sup>35</sup> المصدر نفسه، ص: 119.
- <sup>36</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 10.
- <sup>37</sup> المصدر نفسه، ص: 184.
- <sup>38</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 271.
- <sup>39</sup> المصدر نفسه، ج1، ص: 132.
- <sup>40</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 185.
- <sup>41</sup> المشابكة أو المصافحة، من الطقوس الصوفية، وتعني أخذ العهد، أي الانتساب الرسمي إلى سند صوفي ما، واتخاذ المشبَّك معه شيخا مرشدا وملقنا، ويعبر عن ذلك أيضا بلبس الخرق، أو التلقين، فأبو إسحاق إبراهيم الشاطبي الشهير شبَّك بأصابع أبي بكر بن عمر القرشي الذي شبَّك بأصابع أبي محمد عبد الله بن عبد الله بن سلمون، يقول الشاعر: شابكتهم متبركا بكفهم إذ شابكوا على كريمة
- ينظر: محمد مفتاح، الخطاب الصوفي - مقارنة وظيفية- مكتبة الرشد، المغرب، ط1، 1997، ص: 153، 154، 155.
- <sup>42</sup> محمد بن سليمان الصائم التلمساني الملقب بالجزولي، كعبة الطائفين، ج3، ص: 186.
- <sup>43</sup> اعتبر أبو القاسم سعد الله الشيخ العبدلي من المرابطين الذين لم يؤيدوا العثمانيين كل التأيد، ولم ينقموا عليهم كل النعمة، فقد كان يعظ الحكام العثمانيين، عند ما يرى منهم ما لا يليق، وكان يذهب إلى القائد محمد بن سوري في مقره يعظه، ويطلب منه مطالب في صالح أهل البلاد.
- ملاحظة: استقى أبو القاسم سعد الله هذه المعلومات من كتاب "كعبة الطائفين" موضوع هذه الدراسة.
- ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 473.
- <sup>44</sup> المصدر نفسه، ج2، ص: 16.
- <sup>45</sup> المصدر نفسه، ج1، ص: 294.
- <sup>46</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 301.
- <sup>47</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 264، 265، 266.
- <sup>48</sup> تقع مجاعة بنواحي مدينة غليزان، أسس بها الشيخ سيدي محمد بن علي المجاحي (ولد سنة 945هـ/1538م) زاوية "مجاهدة" لنشر العلم، وكان يقصدها طلاب العلم من كل جهات الوطن، تخرج منها عل سبيل الذكر سعيد قدورة الذي تولى الافتاء المالكي بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة، اشتهر مؤسسها المعروف بـ (أهللول) بالعلم والتصوف والكرم ومحاربة الغزاة الإسبان، وكانت زاويته عبارة عن رباط ضد الأعداء، يذكر أنه أطعم ثلاثمائة مجاهد كانوا على ثغر تنس، قتل سيدي محمد بن علي العالم الزاهد سنة (1002 هـ/1594م) بتحريض من الأتراك. ترجم له الشيخ العربي المشرفي في كتابه الموسوم: «ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة. وذكره أيضا محمد بن سليمان في الجزء الثاني من كتابه هذا، ونقل من خطه بعض الفوائد.
- ينظر: -أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، موفم للنشر، الجزائر، دط، 1991، ص: 279-289
- محمد مفلح، أعلام من منطقة غليزان، أعلام التصوف - شعراء الملحون، دار المعرفة، الجزائر، د ط، 2008، ص: 144، 145
- أبو القسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 267، 364، 510، 511
- <sup>49</sup> ولد سنة 920هـ وتوفي عام 953هـ بنواحي بسكرة، كان من تلاميذ محمد بن علي الخروبي له عديد الكتب، وخصوصا المتون التي نظمها وشرحها في المعاني والبيان والفرائض والمنطق والفلك، له قصيدة في التصوف تسمى (القدسية)، ينظر ترجمته:
- أبو القسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 507-510
- <sup>50</sup> ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 15.
- <sup>51</sup> بلغ عدد صفحات الكتاب بأجزائه الثلاثة في النسخة الأصلية (ن باريس) 1300 صفحة.
- <sup>52</sup> يقول المؤلف: «قد منَّ الله علينا بمشابكة بعض من شاباك أهل الخير، واتصلت سلسلته بالسند الصحيح».
- ينظر: محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ج3، ص: 185
- <sup>53</sup> محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ج3، ص: 135
- <sup>54</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 76
- <sup>55</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 186
- <sup>56</sup> كثرت في كتابه المراتي الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، أو المتعلقة بالأولياء، إما أن يكون قد رآها المؤلف بنفسه، أو رآها أخوه محمد القاضي، أو رآها بعض أصحابه أو مشايخه، ويبدو المؤلف في هذه الناحية متأثرا بكتاب (تحفة الناظر ونزهة المناظر) للفراوسي، خاصة أن المؤلف يطلعنا في كتابه أنه كان يحتفظ بنسخة منه، نقل منها بعض النصوص.
- <sup>57</sup> محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ج1، ص: 302

- <sup>58</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 272
- <sup>59</sup> المصدر نفسه، ص: 121
- <sup>60</sup> المصدر نفسه، ج2، ص: 222.
- <sup>61</sup> محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ج2، ص: 177.
- <sup>62</sup> ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 502
- <sup>63</sup> ينظر: - عبد الوهاب فرحات، سيدي أبو الحسن الشاذلي، حياته ومدرسته في التصوف، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2003، ص: 73، 95-139
- عبد المجيد الصغير، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 19/18م، دار الأفاق الجديدة، المغرب، ط2، 1994، ص: 28-31
- <sup>64</sup> هذه المادة (الأساطير، الكرامات، المراتي...) مهمة في دراسة المجتمع التلمساني في ق 11هـ/17م من جوانبه النفسية والاجتماعية والأنثروبولوجية، خاصة وأن المؤلف يخبرنا أن مجتمعه كان يعيش حالة من الوضع المتأزم اجتماعيا وسياسيا. وهنا يحق لنا أن نتساءل عن سر بروز مثل هذه الظواهر بشكل مكثف في زمنه، هل كان ذلك رغبة في التحرر من هذا الواقع المزري، بحثا عن حال أفضل وتحقيقه ولو في عالم الحلم والخيال اشباعا لرغبة جارفة في حياة أفضل؟
- <sup>65</sup> محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ج2، ص: 03
- <sup>66</sup> المصدر نفسه، ج1، ص: 182
- <sup>67</sup> وقعت الأولى سنة 1035هـ/1626م، والثانية بعدها بستتين.
- <sup>68</sup> محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ج2، ص: 16
- <sup>69</sup> محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ج1، ص: 271
- <sup>70</sup> يقصد بذلك فيما يبدو التصدي للحملات الاسبانية المتكررة على السواحل الجزائرية، لا سيما وهران التي كانت تحت هذا الاحتلال خلال تأليف محمد بن سليمان لكتابه " كعبة الطائفين" في القرن 17م.
- <sup>71</sup> محمد بن سليمان الصائم التلمساني الملقب بالجزولي، كعبة الطائفين، ج2، ص: 194-195.
- <sup>72</sup> ينظر: محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ج2، ص: 15.
- <sup>73</sup> المصدر نفسه، ج3، ص: 161
- <sup>74</sup> المصدر نفسه، ج1، ص: 305.

### المصادر والمراجع:

- 1 - أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، سعد الله أبو القاسم، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ج1.
- 2 - إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 19/18م، الصغير عبد المجيد، دار الأفاق الجديدة، المغرب، ط2، 1994.
- 3 - أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، نويهض عادل، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط3، 1989.
- 4 - أعلام من منطقة غليزان، أعلام التصوف - شعراء الملحون، مفلح محمد، دار المعرفة، الجزائر، د ط، 2008.
- 5 - إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم، دار إحياء التراث، بيروت، د ط، دتا.
- 6 - تعريف الخلف برجال السلف، الحفناوي أبو القاسم محمد، موفم للنشر، الجزائر، د ط، 1991، ج1، ج2.
- 7 - الجديد عن كتاب "كعبة الطائفين"، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، سعد الله أبو القاسم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990، ج3.
- 8 - الخطاب الصوفي - مقارنة وظيفية- مفتاح محمد، مكتبة الرشاد، المغرب، ط1، 1997.
- 9 - سبعة رجال مراكش وأدوارهم السياسية والتربوية والاجتماعية، جلاد حسن، المطبعة الورقية الوطنية، مراكش، ط5، 2007.
- 10 حميدي أبو الحسن الشاذلي، حياته ومدرسته في التصوف، فرحات عبد الوهاب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2003.

- 11 محمد الله أبو القاسم، كعبة الطائفين، مخطوط جزائري من القرن السابع عشر، المجلة التاريخية المغربية، عدد 7-8، جانفي 1977، تونس.
- 12 كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حزب العارفين، (مخطوط)، محمد بن سليمان الصائم التلمساني (الملقب بالجزولي)، نسخة المكتبة الوطنية بباريس، قسم الشقيقات، رقم: (2460) بروكلمان 1009/02، ج3.
- 13 معلمة التصوف، بنعبد الله عبد العزيز، دار نشر المعرفة، الرباط، ط1، 2001، ج2.
- 14 مجمع الأسماع في الجزولي والتباع وماهما من الأتباع، الفاسي محمد المهدي، تحقيق وتعليق: عبد الحميد وعبد الكريم مراد، دار المغرب، فاس ط1، 1994.
- 15 للياقوتة في التصوف، عبد القادر بن محمد (سيدي الشيخ)، المطبعة المركزية، وجدة المغرب، دط، دتا.
- 16 - *Marabouts et khouan- Etude sur l'islam en Algérie*, Louis Rinn- Adolf Jourdan, Librairie éditeurs-Algie-1884.
- 17 - *Alyaquouta, Poème mystique de sidi chikh- Essai d'édition critique et étude du texte selon la tradition Soufi*, MilladAissa –entreprise nationale du livre- Alger, 1986.